تعريف بالكتاب

كان ديكنز يقول بعد شروعه فى كتابة هذه القصة المطولة ـ وهى ختام مطولاته ـ أنه أصبح قليل الرضى عن نفسه ، يبطىء فى الكتابة ولا يعوزه الجهد وانما يعوزه الخيال .

فهذه الرواية صدرت من قلمه أجزاء متتابعة فى كل شهر كعادته فى تأليف مطولاته ، وقد كتبها بعد أن جاوز الخمسين وتمت خبرته بالحياة والناس كما تمت قدرته على تصوير الشخوص وتنويع الأمزجة والطبائع فى مخلوقات خياله من الرجال والنساء ، ولكنه كان كذلك قد شارف دور الشيخوخة الباكرة التى أدركته قبل الأوان لفرط ما عاناه من شدائد العيش أيام صباه ، ولما أصابه من الاعياء من جراء قراءاته العامة لرواياته التى كان يفرغ فيها من ذات نفسه جهدا يفوق جهد الممثل على المسرح فى أداء دوره لأنه كان كأنما يعيد حياة أبطاله وبطلاته أثناء القراءة والالقاء على حسب المناسبات ، وقد ظهر هذا الضعف الذى تحدث عنه فى كثرة المصادفات التى كان يلجأ اليها لحل المشكلات الفنية كلما اشتبكت أمامه مواقف القصة ، ومن هذه المصادفات أن يطيل التنكر فى سيرة بعض أبطاله زمنا لا يعقل أن يتفق لأحد من الأحياء فى الواقع ، وأن يجعل للمورث الواحد ثلاث وصايا تنكشف الواحدة تلو الأخرى لتفريج الأزمة كلما تأزمت حلقات السيرة واحتاجت الى الفرج السريع .

فاذا صح أن يقال أن القصة روح وجثمان فهذه القصة من أتم القصص التى بلغ فيها المؤلف قمة القدرة على تكوين فلسفته للحياة وخبرته بدنياه وبراعته فى تصوير أبناء عصره وبناته وتمثيل الطبيعة

الانسانية ـ من ثم ـ فى جميع العصور . أما جثمان القصة ، أو تركيبها الفنى فقد تعرض فيه المؤلف لذلك النقص الذى أخذه على نفسه قبل أن يأخذه عليه نقاده ، ولكنه عند الرجوع الى الأعذار التى تجوز فى العقل ولا تمتنع كل الامتناع ، لم يتورط فى اختراع موقف مستحيل لا تتفق فيه ضرورات الحياة وضرورات التأليف .

وخلاصة القصة أن رجلا يسمى هارمون كان له ولد وحيد سماه جون لم يرض عن مسلكه حين بلغ مبلغ الشاب فأقصاه عنه وكتب وصيته فأعطى فيها جزءا من ثروته لخادمه (بوفن) واشترط لتوريث ولده الغائب أن يتزوج من بنت كانت عند وفاته طفلة فى الرابعة أو الخامسة ، فاذا أبى الزواج منها ، أو قضى نحبه فى غيبته آل الميراث كله الى الخادم بغير شريك .

وبعد غياب أربع عشرة سنة عاد جون هارمون وسجلت محاضر الشرطة أنه غرق عند وصوله الى الشاطىء لأن الغريق كان يلبس كسوة جون هارمون ، وكانت ملامحه المشوهة من أثر الغرق تبدو على شبه قريب من ملامح جون . ثم حضر مسجل العقود (مورتيمر ليتوود) الى مركز الشرطة واتفق فى الوقت نفسه وجود جون هارمون ليدلى بشهادته فى الحادث ، فانتهى التحقيق باثبات غرقه ـ أى غرق جون هارمون ـ وهو بقيد الحياة ، ولم يشأ جون هارمون أن يظهر نفسه لأنه أحس أن حياته مهددة وأن الدسائس تحاك حوله لاغتياله .

ويذهب ـ الغريق الحى ـ الى دار مستر بوفن خادم أبيه ووارثه وقد أصبح من وجهاء الموسرين ، فيعرض عليه خدمته كاتبا له أو مديرا لشئونه ، لأن مستر بوفن يجهل الكتابة ، فيقبله بعد تردد ، ويعمل فى المنزل مع موظف آخر يسمى مستر (سيلاس ويج) وظيفته أن يحضر الى المنزل ساعة كل يوم ليقرأ للسيد الأمى بعض القصص والأناشيد مقابل خمسة بنسات .

وكان جون هارمون يتسمى باسم روكسميث ويلتقى فى المنزل

بالفتاة ويلفر فيحبها وتحبه ، ثم يفاتحها بخطبتها فيتصل الخبر بمستر بوفن ويتهم كاتبه بالخبث والاحتيال على الفتاة ليوقعها فى حبائله طمعا فى ثروتها المنتظرة ، ثم يعلنه بالطرد من خدمته بعد توبيخه وشتمه على مسمع من الفتاة ، فتحزن الفتاة لما أصاب محبها من المهانة والاذلال من جراء صداقتها ، وتشعر بازدراء (بوفن) لغطرسته وسوء أثر النعمة الحديثة فى خلقه ، ويشفيها هذا الشعور القوى من داء الجشع وحب المال الذى كاد يطغى عليها فيوحى اليها أن ترفض الزواج من غير ذى ثروة ومنصب ، فتهجر المنزل وتلتقى بصديقها روكسميث فى بيت عائلتها الفقيرة ، ويتم الزواج بينهما فيصبح بوفن فى حل من وراثة الثروة كلها لزواج الفتاة من فتى غير الوريث الآخر جون هارمون .

وكان « ويج » القارىء المستأجر عند بوفن قد دأب على الاستطلاع والتفتيش فى أوراق صاحبه لعله يطلع على جلية أمره وحقيقة ميراثه، فعثر بوصية أخرى تقضى بتسليم الثروة كلها للدولة ، فتجرى المساومة على تقسيم الثروة بين بوفن وويج وصاحب له يساعده فى مسائل التسجيل والمقاضاة ،ويوشك الاتفاق بينهما أن ينعقد على هذه الصورة لولا اختلاف ويج وصاحبه فى اللحظة الأخيرة ، ولولا سر آخر من أسرار هذه الوصية المتقلبة يعرفه بوفن ويستند اليه لمقاومة الدسيسة التى حاكها له قارئه وزميله فى المساومة ، فقد كانت لهارمون الكبير صاحب الثروة كلها وصية ثالثة كتبت بعد الوصيتين السابقتين وحفظها بوفن الى حين الحاجة اليها ، وكان قد أدركه الندم واشتد عليه تبكيت الضمير لاستباحته الثروة كلها وحرمان الوارثين معه من نصيبهم فيها ، فصدق النية على التكفير عن ذنبه ودفع المكيدة من قارئه وشريكه فى مساومته وتهديده .

ثم يتفق ـ مع اختلاف الشريكين ـ أن يلتقي المسجل مورتيمر بروكسميث فيذكر أنه هو الفتى الذى لقيه فى مركز الشرطة ويخطر له أنه هو قاتل جون هارمون الغريق فيضطر جون هارمون أن يعلن عن

حقيقته ويبسط الأسباب التى دعته الى انتحال اسم روكسميث أثناء التنكر الذى اضطره اليه الحذر على حياته ، وتنتهى القصة بهذه النهاية السعيدة . ويبقى مصير ويج فيقوده اليه خادم أمين من خدام الأسرة ، يحمله ، لأنه يمشى على رجل من الخشب ، ويلقى به فى عربة من عربات النفاية كانت تعبر الطريق فى تلك الساعة .

* * *

كل هذه المصادفات الملفقة لا أثر لها فى « روح » القصة ولا تعدو أن تكون حيلة من حيل التأليف فى دور من أدوار الضعف وكساد القريحة يلجأ اليها لتركيب جثمان القصة وربط العلاقة بين حوادثها ومواقف أبطالها وبطلاتها ، ولكن القصة — فيما عدا ذلك — آية من آيات ديكنز فى وصف الطبيعة البشرية وعرض المؤثرات الصادقة التى تتقلب عليها بين الطمع والمروءة وبين الكرم والخسة وبين دوافع الشباب وعبر الشيخوخة وطوارىء الأحداث وعوارض الحياة الاجتماعية ، وقد يتراءى لنا ونحن نعرض الحوادث والشخوص كما تمثلها خلاصة القصة أنها غريبة عن الحياة الواقعية أو متكلفة لتغليب الحسنات على السيئات فى الخلائق الانسانية على سنة المواعظ المألوفة فى قصص الأقدمين وفى جملة القصص التى يحرص المؤلفون على الانتهاء بها الى نهاياتها السعيدة ، ولكن قدرة ديكنز على تصوير بواطن النفس وكياسته فى التنقل بها على مهل ، بين همسة وهمسة ، أو بين وثبة ووثبة ، ليتحول بها من النقيض الى النقيض ، وهى خليقة أن تملأ الفجوة الواسعة بين كل نقيض ونقيضه ، وأن تقنع القارىء بسهولة هذا التحول وموافقته فى مجراه لطبائع الناس وبواعث الخير والشر فيما يقصدون اليه وينساقون اليه على غير قصد ولا روية ، وليست هذه القصة فريدة العقد فى مجموعة القصص التى اشتهر بها أستاذ القصة فى عصره غير مدافع ، ولكنها قد تكون فريدة العقد فى الدلالة على أصالة تلك الأستاذية وغزارة ينبوعها من عبقريته السخية ، تلك الأستاذية التى يلم بها فتور السن والسقم وتبقى منها بعد ذلك كل هذه البقية من القدرة والبراعة .

عباس محمود العقاد